السرد
في حكايات أخوان الصفاء

د. فائز طه عمر*

مقدمة

تتميز رسائل أخوان الصفاء وخلّان الوفاء[١] (بسهولة التعبير والوضوح والاستعانة بالخيال)[٢]، وقد ظهرت مسألة الاستعانة بالخيال في تصريف أفكارهم وعرضها في ما أوردوه من حكايات مشوقة في ثنايا هذه الرسائل، وهم كانوا، في ذلك، يقصدون جذب المؤيدين لما يرونه من أفكار في الفلسفة والدين والسياسة وغيرها، وأيّا كانت تلك الأفكار وأهداف أصحابها[٣]، فإنّ ما خلّفوه هو ملك أبناء الأمة وجزء من تراثهم، ولاسيما ما يتعلق منه بذلك الجانب المهم المعبّر عن إمكانات أخوان الصفاء على إيصال أفكارهم بأساليب مؤثرة وجذابة، لذلك وجدنا أنفسنا ساعين الى دراسة حكاياتهم، لأنها تمثل الوجه الأكثر وضوحا لهذه الإمكانات، مختارين البدء في هذه الدراسة بتناول أهمّ عنصر من عناصر الحكايات وهو السرد الذي هو قوام البحث ومداره .

وقد ظهرت مقدرتهم على سرد الحكايات على نحو جذّاب في الكثير من رسائلهم التي ظهر فيها الفن القصصي متمثلا في إيرادهم الأخبار التمثيلية القصيرة لتجسيم الأفكار وتقريبها في حدث بسيط ذي مغزى، وفي الحكايات الناضجة ذات العناصر القصصية الواضحة التي سيكون السرد منها هو مدار اهتماما كما قلنا.

والسرد، بعامة، هو الإجادة في سياق الحديث[٤]، في أحد معانيه اللغوية، ويبدو أن معناه الاصطلاحي، في إطاره العام، لم يخرج عنه[٥]، وفي تعبير آخر وصف السرد بأنه : (قصّ حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك في

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية / كلية الآداب - جامعة بغداد.

صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال)[٦]، على هذا فهو عنصر مهم من عناصر الفن القصصي وأثره فيه واضح ومتميّز، وأهميته، فاقت أهمية العناصر الأخرى التي يظهر فيها أثره جليّا[٧]، فالسرد هو الذي يميز الفن القصصي أو الأسلوب القصصي في إطاره العام من الفنون والأساليب التعبيرية الأخرى.

وسوف نحاول، في هذا البحث، إظهار مستويات السرد، وزمنه، وخصائصه الفنية العامة في حكايات إخوان الصفاء، على النحو الذي نجده فيها، مستنيرين ببعض الأفكار الحديثة.

أولا - مستويات السرد في الحكايات

إن قارئ حكايات إخوان الصفاء يلاحظ مستويات سردية مختلفة فيها، على أنها متباينة في حجمها ومقدارها، وأن ظهور هذه المستويات تتحقق كثيرا في الحكاية الواحدة، على أنّ هناك حكايات قليلة كانت ذاتَ مستوى سردي واحد. نشير هنا، الى هذه المستويات مبتدئين بالأكثر ظهورا في هذه الحكايات.

١- السرد الأولي :

ويُدعى بالسرد من الدرجة الأولى[٨]، أو السرد المباشر[٩]، ويكون السارد، هنا، خارج الحكاية وليس حاضرا فيها[١٠]، أي أنه ليس واحدا من شخصيات الحكاية، ومهمة هذا السرد هي قص الأحداث الأساسية والتمهيد لها وربط الحوار، وهي مهمة أساسية تحدد الإطار العام للفن القصصي. وأهم سمات هذا المستوى السردي استعمال السارد فيه ضمير الغائب أو الغائبين، لأنّ ما يقصه من أحداث هو متعلق بغيره وليس به. وهو الأكثر ظهورا وهيمنة على حكايات إخوان الصفاء، وقد سردتْ الغالبية المطلقة منها به.

ومن خلال ما ذكرناه من مهمة لهذا السرد تستطيع تحديد وظائف واضحة له تحققت في الحكايات، تتعلق بقص الحدث الأساس أو الأحداث الأساسية وتتبعها، بعد التمهيد لها بسرد حدث أو أوصاف وترد هاتان الوظيفتان متداخلتين في الكثير من الحكايات، كما أنّ اعدادهما في حكاية واحدة يظهرهما بوضوح، من ذلك ما

نقرأه في حكاية (أحد أولاد الملوك الذي فقد كلّ شيء)(*) : (أعلم أنه كان في الأزمان الماضية فتى من أولاد الملوك شابا ظريفا حسن الوجه كامل البنية تام الصورة جميل الأخلاق كريم الأفعال عادل السيرة، عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك فتزوّجها... وعاش معها زمانا طويلا في عزّ سلطانه... ثمّ فرّق الدهر بينهما وزال الفتى عن ملكه بغلبة عدوّ ظهر عليه وأغترب عن بلاده وساح في الأرض على حالة الغرباء وأفتقر وأصابه الذل والهرم وضعف بدنه وذهبت قوّته وكلّ بصره وثقل سمعه وأصابه العُرْي والجوع والعطش وتمنّى الموت... فدخل خربة، ونام فيها على مزبلة ورماد يستريح بلينِ وطاءها فوجد راحة فنام، فرأى في منامه وكأنه على سرير ملكه وعزّ سلطانه، ونعيم أثاثه، وسرور أيامه، فإذا هو بتلك الجارية وكهينتها يوم عشقها وزمان تزوّجها بحسنها وجمالها فعانقها، والتزما شهوة ونال منها شهوته كما كان يدرك بدءا وهو على سرير الملك يحملها الريح حيث أراد. فمن شدّة ما وجد من اللذة والفرح... اضطرب من نومه وتحرك وآنتبه، فإذا هو في تلك الخربة وفي تلك المزبلة، وكلاب حوله تنبح عليه...)(١١)، فكما يظهر من تسلسل الأحداث وسردها أن التمهيد بسرد الحدث الأساس قد تحقق في زواج هذا الشاب أبن أحد الملوك ممّن عشقها، وعيشه معها بسعادة حتى زوال ملكه بفعل عدو له، ثم اغترابه عن بلاده، وافتقاره، وذلّه، وهرمه وضعفه وذهاب قوّته. أمّا الحدث الأساس فهو حدث الرؤيا التي تراءت له وهو نائم في المزبلة، ممّا يتّضح من الهدف الحقيقي للإتيان بهذه الحكاية، وهو تأكيد إخوان الصفاء وجود النفس الإنسانية مستقلة عن الجسد، مع تلازمها في الحياة، مما قال به إخوان الصفاء في موضع الحكاية ذاته. على أننا ينبغي أن نلاحظ أنّ وظيفتي السرد الأولي المذكورتين قد تحققتا في ضمن النسيج العام للحكاية التي لا تقوم إلاّ بوجود أحداث مترابطة تؤدي وظائف معينة فيها، على نحو عام.

ونجد الشيء نفسه في حكايات أخرى منها حكاية النّبي الذي (اجتاز مرة عيناً من الماء في سفح فتوضأ ثم ارتقى الى جبلٍ ليصلي، فبينما هو كذلك إذ نظر الى فارس قد أقبل على تلك العين فشرب منها الماء وسقى فرسه، ثم ركب فمضى، ونسي عند العين صُرّة فيها دراهم، ثم جاء من بعده راعي الغنم ورأى

الكيس فأخذه، ومضى، فجاء شيخ حطاب بائس مكان الكيس، ففكر النبيّ وقال في نفسه : لو أن هذا الكيس مكانه لكان هذا الشيخ الضعيف أولى بأخذه من ذلك الراعي الشاب الغني القوي، ثم عاد الفارس الى مكان شربة الماء، فطلب الكيس فلم يجبْهُ، فطالبَ الشيخ، فأبى الشيخ وقال: ما عندي خبر هذا، فضربه وعذّبه حتى قتله. ومضى الفارس. فقال عند ذلك : يا ربّ ما وجه الحكمة في هذه القضيّة، وأين هذا العدل ؟ فأوحى الله تعالى اليه أن أبا الشيخ قَتل، في الزمان الماضي، أبا الفارس، وكان، على أبي الفارس، دَينٌ لأبن الراعي بمقدار ما في الكيس، فأخذتُ النقود، ورددتُ الدّين، وأنا حكيم عادل)[١٢].

فالأحداث التمهيدية هي اجتياز النبيّ عينا من الماء في سفح جبل وتوضّؤه ثمّ ارتقاؤه الى الجبل ليصلّي..، أما الأحداث الأساس فهي التي رآها النبيّ والتي سأل فيها الله تعالى عن وجه الحكمة فيها ثمّ ما أُوحي اليه بشأنها. وفي الحقيقة أن أغلب الحكايات[١٣] تضم سردا أوليا أدى هاتين الوظيفتين على نحو متداخل، كما رأينا.

وقد ظهرت، في حكايات إخوان الصفاء، وظيفة أخرى للسرد، هي ربط الحوار بحوار آخر في الحكاية الواحدة، وقد ظهرت في الحكايات التي أُستعمل فيها الحوار، بوصفه أحد عناصر الفن القصصي، لبسط الأفكار وتصريفها، ولاسيما في حكاية (تداعي الحيوانات على الإنسان)[١٤] التي تغلب عليها الحوار الذي ظهر في المناظرات التي قامت بين بني الإنسان والحيوان، والتي عُهد فيها لملك الجن مسؤولية إصدار حكم في صدق دعوى الحيوان على الإنسان أو بطلانها، لذا فهي تُعدّ ممّا سُمّي بأدب المحاكمات[١٥]، مع أنها، أيضا، الى ما عُرف بملحمة الحيوان[١٦]، فمعظم أبطالها من الحيوان في مواجهة مجموعة من البشر. وقد كثر الحوار في هذه الحكاية الطويلة المزدحمة بالحجج الكثيرة التي قيلت في موضوعات وظروف مختلفة، فلا بد من ربطها ربطا يحافظ على حبك الحكاية ونسيجها، فتحقق ذلك الربط بالسرد، ممّا نقرأه في هذه السطور : (ولما كان من الغد وردت زعماء الحيوانات من الآفاق، وقعد الملك لفصل القضاء، نادى منادٍ : ألا من له مظلمة ألا من له حكومةٌ فليحضر، فأنّ الحاجاتِ تُقضى، لأنّ الملك قد

جلس لفصل القضاء. وحضر القضاة الجنّ وفقهاؤها وعدولها وحكّامها، وحضر الطوائف الواردون من الآفاق من الأنس والحيوانات، فاصطفتْ قدّام الملك ودعتْ له بالتحية والسلام. ثم نظر الملك يمنة ويسرة فرأى من أصناف الخلائق واختلاف الصور وفنون الأشكال والألوان والأصوات والنغمات فيها، فبقي متعجبا منها ساعة ثم التفت الى حكيم فلاسفة الجن، فقال : ألا ترى الى هذه الخلائق العجيبة الشأن من خلق الرحمن ؟ قال نعم أيها الملك أراها بعين رأسي وأشاهد صانعها بعين قلبي....)[١٧].

ولاشك في أنّ هذا السرد يؤدي، مع وظيفة الربط، وصف مشاهد وايراد حوادث يدور عليها الحوار، ممّا نجده كثيرا في أكثر صفحات هذه الحكاية، كما أنّ وظيفة الربط بين الحوار ظهرت في سرد حكايات أخرى من حكايات إخوان الصفاء[١٨]، أيضا.

٢- السرد الثانوي :

هو أنْ يتولى (الكلمة داخل هذه الرواية أو الأقصوصة شخصية أو حتى الراوي نفسه ليقص حكاية أخرى)[١٩]، أي أنّ السرد هذا تتولاه إحدى شخصيات الحكاية، فيُصطلح على هذا الشخصية، حينئذٍ، أسم السارد الثاني، وهو (يوجد داخل عالم حكاية السارد الأول... ولهذا يُسمّى داخل - حكائي)[٢٠]، أو قد يتولى السارد الأول سرد حكاية أخرى مفسرة أو مكمّلة لحكايته الأولى، فيكون سردُه، إذّاك، ثانويا.

وفي حكايات إخوان الصفاء لم نجد من هذين النوعين من السرد الثانوي إلا ذلك الذي يؤديه أحد شخوص الحكاية، وهو من نوع ظهر فيها بوضوح، ممّا نجده، مثلا، في حكاية (وزير الخيشوان ملك الهياطلة) إذ حكى هذا الوزير حكاية للملك في أثناء حوار جرى بينهما عن كيفية التصدي لجيش (فيروز ملك الفرس) فقد أشار عليه الوزير بأنْ يتركه مقطوع اليدين والرجلين، مُسمَل العينين، ليجده فيروز فيخدعه بأنّ ملكه قد غضب عليه لخيانته، ليضلله، وعندما أبى الملك هذه الفكرة شفقة على وزيره، أخذ هذا الوزير بإقناعه، فأورد له حكاية كانت أهمّ وسيلة

في قبوله تنفيذ فكرته، مما نقرأه في هذه السطور. (.. فقال الملك تاللّه ما رأيت ولا ظننتُ أنّ أحدا من الناس يسمح بما سمحتْ به نفسك !! قال الحكيم[٢١]. قد سمح قبلي ذلك الرجلُ الخبّ[٢٢] العاقل. قال الملك : حدّثني كيف كان حديثه ؟ قال الحكيم : ذكروا أنه كانَ قومٌ من الغوّاصين ذهبوا الى جزيرة يستخدمون اللؤلؤ، فصحبهم رجلٌ خبٌّ ليحتال عليهم فيفوزَ ببعض ما يستخرجون...)[٢٣]، وتستمر حكاية هذا الرجل بحدوث أحداث حدثْ به الى أنْ يفتديَ الغواصين بنفسه بعد تعهدهم له برعاية عياله وإقامة معيشتهم. فعندما سمع الملك هذه الحكاية أقتنع بتنفيذ فكرة وزيره، ونجح في ما أراده.

ويتحقق السرد الثانوي، على هذه الطريقة، بقصّ حدثٍ قصير يمثل حكاية قصيرة تظهر في أثناء الحوار، فعندما أراد أحد الحكماء الدخول الى الحكيم أبن الملك ليسبغه النّصيحة ويعلّمه الدين، تحايل على خادم أبن الملك بأنّ له نصيحة وحاجة يريد ايصالها الى أبن الملك فأبى الخادم إلاّ أنْ يعرفها، فقال : (ما هذه الحاجة وما هذه النصيحة أسمعنيها حتى أعرفها. قال له : أنا رجلٌ من تجّار البحر، وقد وقع بيدي جواهرُ مثّمنة نفيسة لا تصلح إلاّ للملوك وأبناء الملوك. وقد قصدتُ هذا الفتى لأعرضها عليه، فأن كانت تصلح له وأختارها فهي مبذولة له، وإنْ لم يكن يريدها رُدّت اليّ سرّا ولم يعلم بها أحدٌ من الناس، فأنيّ لست آمنُ من أنْ يشعر بها بعض اللصوص أو الطرّارين فيحتال عليّ في أخذها..)[٢٤]. فهذه الكلمات التي قالها الحكيم تمثل الحكاية التي سردها بايجاز شديد، وحَذَر واضح، أمام الخادم، ليحقق مبتغاه.

وربما يتحقق السرد الثانوي أيضا عندما يقصّ أحد الشخوص، في حكاية معيّنة، حدثا أو أحداثا، أو أوصافا، على نحو موجز، في أثناء الحوار، ممّا قد نجده في مواضع كثيرة، منها ما نقرأه في حكاية (تداعي الحيوانات على الإنسان) : (ثم تكلم الجمل فقال: لو رأيتَنا أيها الملك، ونحن أسارى في أيدي بني آدم، محزومة أنوفنا، بأيدي جمّالهم خطامنا يجبروننا على كرهٍ منّا، محمّلة ظهورنا بأثقالهم، نمشي في ظلم الليالي، نصدم الصخور والدكادك بأخفافنا، ويقرح جنوبنا وظهورنا من احتكاك أقتابنا ونحن جياع عطاش، لرحمتَنا، ورثيت لنا...)[٢٥].

إنّ هذه الطريقة في السرد الثانوي تزيد الحكاية تشويقا، وهي ربما، في هذه الناحية، تُعدُّ أصلا من أصول ما أُتبع من أساليب سردية في حكايات ألف ليلة وليلة المعروفة.

ولابد من الإشارة، هنا، الى أنّ الحكايات الثانوية التي سردها أحد شخوص هذه الحكاية أو تلك، قد ظهرت فيها وظائف السرد آنفة الذكر في السرد الأولي، لاسيما في الحكايات الثانوية المكتملة العناصر. ولا نريد تضخيم البحث بإيراد أمثلة مشابهة لما سبق.

٣- السرد الذاتي :

وهو ما يُدعى، أيضا، بالسرد على طريقة الترجمة الذاتية[٢٦]، وفي هذا المستوى من السرد يكون السارد هو الشخصية المحورية في الحكاية، فهو الذي يتحدث عن نفسه، ويقصّ ما جرى عليه من أحداث، وما مرّ به من شخوص وغير ذلك، وهو يكون شاهدا على صحة حكايته[٢٧]. وسمة هذا السرد الأساسية هي استعمال السارد ضمير المتكلم في قصّة الحوادث، وحديثه عن الشخوص الآخرين.

ونكاد لا نجد في حكايات إخوان الصفاء إلا حكاية واحدة كان السردُ فيها ذاتيا هي (ما حكاه وليٌّ من أولياء الله عن كيفية معرفة مكائد الشيطان...)[٢٨]. بسرد تمهيدي أوّلي بسيط، وسؤال كان جوابه هي الحكاية، إذ نقرأ أولها: (قال العالم المستبصر لأخ له من أبناء جنسه، في ما جرى بينهما من المذاكرة في أمر الشياطين وعدوانهم : كيف عرفت الشياطين ووساوسهم؟)[٢٩]، وبعد هذا السؤال يبدأ الوليّ الصالح في سرد حكايته مع الشيطان ووساوسه ومكائده سردا ذاتيا غالبا ومهيمنا هو ما جعلنا نُدخل هذه الحكاية في السرد الذاتي وليس في السرد الأوّلي كما توحي بداية الحكاية بذلك. ولا بأس من إيراد سطور منها : (إني لما نشأت وتربّيت وشدوتُ من الآداب طرفا، والمنافع والمضارّ، تبيّنتُ ما يجب عليّ من أحكام الناموس من الأوامر والنواهي والسنن والفرائض والأحكام والحدود والوعد والوعيد والذم والمدح على الأعمال والأفعال، وعلى تركها، ثم قمتُ بواجبي جهدي وطاقتي بحسب ما وقعت له وقضي عليّ ويسّر لي، ثم تفكرتُ في قول الله

تعالى ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾[٣٠]، وقوله ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا﴾[٣١]، وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى، وتفكرتُ في قول النبي ﷺ (رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر)[٣٢]، يعني مجاهدة النفس... فلمّا سمعتُ ما ذكر الله تعالى وتفكرتُ في ما روي عن النبي ﷺ في هذا المعنى نظرتُ بعد ذلك بعقلي وفكرتُ بقلبي وتأملتُ برويّتي فلم أرَ أحدا في ظاهر الأمر يضادّني في هذا المعنى ولا يخالفني ولا يعاديني من أبناء جنسي وذلك لأنّي وجدتُ الخطاب متوجها عليهم كلهم مثلَ ما هو متوجّهٌ عليّ...)[٣٣].

إنّ قارئ هذه السيرة الذاتية يتبيّن له أنها سيرةٌ نفسيةٌ فكرية تأملية، فجميع أحداثها أو أغلبها، حدثت في نفس السارد، وقد لاحظنا ظهور هذا السرد الذاتي في بعض نصوص السرد الثانوي، أيضا، كما في الأمثلة السابقة.

ثانيا – زمن السرد

يمثل زمن السرد مسألة مهمة تتطلبُ من دارس السرد، بعامة، أنْ يتوقف عندها، وهي محاولة لإيجاد علاقة زمانية بين السرد والحكاية المحكية من السارد، من خلال ملاحظة زمن وقوع أحداث الحكاية قياسا الى تحقق القيام بالسرد. ومن خلال تتبعنا حكايات إخوان الصفاء وجدنا أنّ هناك مستويين زمنيين للسرد هما :-

١- السرد التابع :

وهو (السرد الذي يقوم فيه الراوي بذكر أحداث حصلت قبل زمن السرد بأنْ يروي أحداثا ماضية قبل وقوعها)[٣٤]، فهو متعلق بما مضى وقوعه، وبشيء كان قد جرى في زمان ماضٍ، وفي مكان معين، ولشخوص معيّنين، فهو سردٌ لحدث أو لأحداث واقعة في زمنٍ سبق زمنَ عملية سرد الحكاية أو قصّها. وهو كثير الوقوع في حكايات إخوان الصفاء، بل يكاد يستغرق حكايات السرد الأوّلي، وأكثر حكايات السرد الثانوي، ويتجلى ذلك، على نحو خاص، من خلال ورود الأفعال الماضية، وهي تفصح عن زمن الأحداث بدقة، فيظهر، استنادا الى ذلك، زمن السرد، نحو ما نقرؤه في هذه الحكاية : (.. ذُكر أنّ مدينة كانت على رأس

جبل في جزائر البحر، خصيبة كثيرة النعم رحبة الباب طيّبة الهواء عذبة المياه جيدة التربة... وكان أهلها أخوة وبني أعمام، بعضهم لبعض من نسل واحد، وكان عيشهم أهنأ عيش... ثم أنّ طائفة من أهل تلك المدينة المذكورة ركبوا البحر وكُسر بهم المركب، ورمى بهم الموج الى جزيرة أخرى فيها جبال وأشجار عالية...)[٣٥]. فافعال : كانت وكان المكررة، وركبوا، وكُسر، ورمى وغيرها ممّا يجده قارئ هذه الحكاية كاملة، هي أفعالٌ ماضيةٌ تُبين أنّ السرد تابعٌ للحدث في زمنه.

على أنّ الزمن الماضي، أحيانا، يتحقق دون استعمال فعل ماضٍ، فقد يعمد السارد الى استعمال الفعل المضارع أو الجملة الخبرية، وهو يريد المضيّ، لأنه يتحدث عن شيء وقع، وهو ما نجده في غير موضع من حكاية (تداعي الحيوانات على الإنسان) منها هذه السطور: (ثم تكلم الفَرَسُ فقال : لو رأيتنا أيها الملك، ونحن أُسارى في أيدي بني آدم، واللحم في أفواهنا، والسروج على ظهورنا، والطنوج في أوساطنا، والفرسانُ المُدرعة على ظهورنا في المعارك، ونُقحم في الغبار جياعا وعطاشى، والسيوف في وجوهنا، والرماح في صدورنا، والسهام في نحورنا، نخوض المنايا، ونسبح في الدماء، لرحمتنا أيها الملك)[٣٦]، فقد استعملت جمل خبرية ذات دلالة زمنية مضارعة نحو (والفرسان المدرعة على ظهورنا...) وأفعال مضارعة هي نُقحم، ونخوض، ونسبح، على أنها، في قصد المتكلم، تدلّ على أشياء حصلت في الماضي، فالسرد فيها تابع استعملت فيه صيغ المضارعة لتقريب الصورة وتحقيق التأثير المطلوب مما هو واضح من سياق الحكاية.

٢- السرد المتقدم :

(وهو سرد استطلاعي [يوجد][٣٧] غالبا بصيغة المستقبل، وهو نادر في تأريخ الأدب)[٣٨]. وهو متحقق في حكايات إخوان الصفاء على نحو غير قليل، بيدَ أنه موجود في عدد من أمثلة السرد الثانوي التي ترد في ثنايا الحوار، وقوامُه قصُّ أحداث محتملة الوقوع في المستقبل، أو ذكر أشياء من الممكن أنْ تحدث، فالأحداث غير واقعة، ممّا يستدعي استعمال أفعال تفيد المستقبل، في الأكثر، تتمثل بخاصة في استعمال الفعل المضارع الذي يفيد المستقبل في سياق السرد، وفي فعل الأمر

أيضا، ممّا نجده، مثلا في حكاية (الأعمى والمقعد) في هذه الأسطر منها : (فلم يزالا يفكران ويُعملان الروّية، أن قال المقعد للأعمى : ويحك! أنا صحيح العين أرى ما غاب عنك، فاحملني على كتفك لأطوفَ في البستان، فكلّما رأيت ثمرة مليحة طيبة قلت لك قدّمني يمنة ويسرة، وتطاولْ وتقاصرْ فأقطفها لك...)[٣٩]، ففي هذه الأسطر يسرد المقعد للأعمى ما ينبغي فعله في المستقبل، وهو ما فعلاه حقا، من خلال استعمال أفعال الأمر : احملني وتطاولْ وتقاصرْ. والمضارعة : أطوف وأقطفها، وهما يدلان على المستقبل. كذلك نجد السرد المتقدم في حكاية (وزير الخيشوان ملك الهياطلة) في قول هذا الوزير لملكه، وهو يشير عليه في كيفية ملاقاة ملك الفرس (فيروز) : (الرأي عندي أنْ تجمع خزانتك وتتوجه الى موضع كذا فأنه موضع حريز وتقوم أنت وجيشك وتمرّ الى موضع كذا، وتتركني في مكاني هذا، بعد أن تقطع يديّ ورجليّ، وتظهر الغضب عليّ، وتقول لمن حولك ولمن ببابك، قد ظهرت منّي عليك خيانة وقلة نصيحة، وهذا عقوبة لك...)[٤٠]، فقد تحقق هذا السرد من خلال أفعال المضارعة (تجمع، وتتوجه وتقوم) وغيرها الدالة على المستقبل. ممّا نراه في أمثلة أخرى.[٤١]

نظرة عامة في الخصائص الفنية

لابد من الإشارة، بإيجاز، الى خصائص السرد في حكايات إخوان الصفاء، من الناحية الفنية، فقد ظهرت فيه قوة أداء المعاني من خلال استعمال ألفاظ فصيحة مختارة بعناية، إذ تميزت بالبساطة وقرب المأخذ إلا ما ندر، وقد ألفتْ بها تراكيب وجمل لا تعقيد فيها ذات سلاسة واضحة في جميع نصوص هذه الحكايات، ومنها ما أتينا به في الصفحات السابقة، مع ملاحظة أن السرد، على نحو عام، كان موجزا، فكثيرا ما نقرأ في كلمات قليلة سردا لأحداث كثيرة وكبيرة، نحو ما نجده في هذه الأسطر من إحدى هذه الحكايات : (وذُكر أيضا أنّ رجلا من المترفين وأرباب النعم، ممن قد بُسط له في دنياه، ومكن له فيها، جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا في تنعّم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه وإصلاح

شهواته...)[٤٢]، فالأحداث جاءت مُجملة غير مفصلة، كما نقرأ أيضا في حكاية أخرى منها (ذكروا أنه كان رجلٌ من أرباب النعم متدّينا، وكان له ابنٌ متجاهرٌ بالسكر، وكان الرجل كارها لذلك منه...)[٤٣].

ولابد من الإشارة الى دقة الأوصاف التي أتى بها إخوان الصفاء في حكاياتهم متمثلة في دورانهم حول المعنى الواحد من وجوه متعددة، وهي تمثل ظاهرة عامة في سرد حكايات إخوان الصفاء، منها وصفهم الباز في حكاية (الغربان والباز) في قولهم : (..وكان بالقرب منهم باز قد كبر وخرف وضعفت قوته عن الصيد وأنحلّ جسمه وتناثر ريشه من قلة المعيشة وتعذّر القوة، فبلغه خبر الغربان وما أجمعوا عليه فبرز من وكره الى حيث ممرّهم عليه، وأقبل يكثر التهليل والتسبيح ويُظهر التخضّع والتورع، فأقبلت الطيور تطير على رأسه، فلا يولع بها ولا يمشي اليها...)[٤٤].

ويطبع الترسل معظم سرد الحكايات ممّا يمثل ظاهرة عامة أيضا، ولا يظهر السجع فيه إلا في مواضع قليلة، طبيعيا غير مُتكلّف نحو قولهم في إحدى حكاياتهم : (..فرأى دارا حسنة وستورا وفرشا وأواني ورياحين وشموعا تزهر ومجامر تبخر...)[٤٥]، فبين كلمتي تزهر وتجمر سجع واضح يمثل واحدا من عناصر إيقاعية ظهرت في سرد هذه الحكايات، منها، أيضا، تكرارهم صيغة (أفعل) في قولهم : (..فمن كان أذكى وأفخم وأنجب عقل ذلك وتحقق واستغنى عن سؤال لم وكيف...)[٤٦]، فكلمات (أذكى وأفهم وأنجب) الدالة على التفصيل حققت إيقاعا وجدناه في نصوص سردية قليلة أخرى بعناصر إيقاعية أخرى[٤٧].

وقد ظهرت بعض المقابلات في سرد حكايات إخوان الصفاء، على نحو قليل، من ذلك قولهم : (..فمن كان منهم ذكيّا فهيما مدركا نجيبا علم أنه عمل صالح حليم، ومن كان منهم غبيا أبله ساهيا خفي عليه ذلك وأنغلق...)[٤٨]، مع ظهور بسيط للطباق أيضا كما في قولهم: (..وأحتاج أنْ يكون تابعا بعد أنْ كان متبوعا، ومرءوسا بعد أن كان رئيسا)[٤٩]، فتابع ومتبوع بينهما طباق كما هو بين مرءوس ورئيس أيضا.

وقد مرّ بنا في بعض النصوص الاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف، على نحو قليل.

كما أتضح لنا، من خلال الأمثلة، هيمنة الجملة الخبرية في سرد حكايات إخوان الصفاء، وربما كان هذا أمرا طبيعيا، لأن السرد، في حقيقته، إخبار أو أبلاغ عن أشياء وحوادث حصلت، أو ستحصل أحيانا، على أنّ هناك مواضع قليلة[٥٠] جدا ظهر فيها بعض أساليب الطلب، مثل الاستفهام بخاصة.

وقد ذكرنا أن الألفاظ في سرد الحكايات فصيحة، ألا أن هناك ظهورا قليلا جدا لألفاظ عامية[٥١]، وفارسية[٥٢]، وهي لم تخلّ بفصاحة السرد. كما لاحظنا، من خلال الأمثلة، أنهم يوردون أسماء أعلام تأريخية، وأسماء أماكن.

وثمة تشبيهات قليلة في سرد الحكايات، منها ما نجده في هذه السطور : (فلمّا تأمل ذلك فإذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف، وإذا هو بأنوار قد ملأت الأفاق من الضياء، وإذا في ذلك الفضاء رياضٌ خضرٌ كأنّ بينهما نسيجَ الديباج من الزهر والنور والزعفران وإذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كأنّ حصاها الدّر والياقوت والمرجان...)[٥٣]، ففي هذا النص القصير بدتْ ظاهرة أخرى هي تكرار اللفظ المفرد، فقد كُررت كلمة (إذا)، وهذه ظاهرة عامة في سرد إخوان الصفاء حكايتهم[٥٤]، كما ظهر لديهم تكرار تراكيب[٥٥]، في مواضع قليلة.

إنّ ما أوردناه في هذا البحث أنطلق ممّا هو موجود في نصوص السرد التي وجدناها في حكايات إخوان الصفاء.

الهوامش

(١) مطبوعة بطبعات عديدة، وقد اعتمدنا، في هذا البحث، على طبعة الزركلي.

(٢) دراسات في تأريخ الفلسفة وآثار رجالها : ٤٠١.

(٣) رسائل إخوان الصفاء : ١/ مقدمة طه حسين ٧-١٥. عصر الدول والإمارات: ٤٣١، ظهر الإسلام : ٢/١٤٣ - ١٦٣.

(٤) مختار الصحاح : ٢٩٤.

(٥) المعجم الأدبي : ١٣٩.

(٦) معجم المصطلحات العربية : ١١٢، وأنظر م. ن : ١٦٠.

(٧) الفن القصصي، طبيعته، عناصره : ٤٢ - ٤٥، ٤٩.

(٨) مدخل الى فن القصة : ١٠٠.

(٩) فن القصة : ٧٧، ٧٨.

(١٠) نظرية السرد : ١٠٣، ١٠٤.

(*) آثرنا إطلاق بعض التسميات على بعض ما يراد من حكايات في هذا البحث، أستمدت من موضوع الحكاية وشخوصها الرئيسيين.

(١١) رسائل إخوان الصفاء : ٣/ ٩٦.

(١٢) م. ن : ٣/ ٤٣.

(١٣) م. ن : ٣/ ١٧٣، ٤/ ١٠٢، ١٤٥ - ١٤٦، ١٤٩. أمثلة أخرى.

(١٤) م. ن : ٢/ ١٧٣ - ٣١٧، وقد نشرها فاروق سعد في كتاب مستقل أطلق عليه (تداعي الحيوانات على الإنسان) أعتمد عليه البحث في اقتباس نصوص من هذا الحكاية.

(١٥) تداعي الحيوانات : ٢٢.

(١٦) م. ن : ٧، ٨.

(١٧) م. ن : ١٤٥.

(١٨) رسائل إخوان الصفاء : ١/ ٢٦٤ - ٢٦٧، ٢٣٧ - ٢٣٩، ٣ / ٨٨، ١٧٨- ١٨١.

(١٩) مدخل الى نظرية القصة : ١٠٠.

(٢٠) نظرية السرد : ١٠٤.

(٢١) أي الوزير الحكيم.

(٢٢) الخِبّ : الرجل الخدّاع. مختار الصحاح : ١٦٧.

(٢٣) رسائل إخوان الصفاء : ٤/ ٨٧ - ٨٨ وأنظر م. ن : ٤/ ٢٠٣ مثال آخر.

(٢٤) م. ن : ٤/ ٢٠١. وأنظر تداعي الحيوانات : ٧٩ - ٨٢ مثال آخر.

(٢٥) تداعي الحيوانات : ٦٤.

(٢٦) فن القصة : ٧٧، ٧٨.

(٢٧) نظرية السرد : ١٠٢.

(٢٨) رسائل إخوان الصفاء : ١/ ٢٨٦.

(٢٩) م. ن : ١/ ٢٨٦.

(٣٠) فاطر : ٦.

(٣١) الإسراء : ٥٣.

(٣٢) حديث نبوي شريف.

(٣٣) رسائل إخوان الصفاء : ١/ ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣٤) مدخل الى نظرية القصة : ٩٧.

(٣٥) رسائل إخوان الصفاء : ٤/ ١٠٢.

(٣٦) تداعي الحيوانات : ٦٤ - ٦٥ وأنظر م. ن : ٦٣ - ٦٥ أمثلة أخرى.

(٣٧) في الأصل (يتواجد) وهو خطأ آثرنا تصحيحه.

(٣٨) مدخل الى نظرية القصة : ٩٧.

(٣٩) رسائل إخوان الصفاء : ٣/ ١٦٤.

(٤٠) م. ن : ٤/ ٨٧.

(٤١) تداعي الحيوانات : ٧٦، وأنظر م. ن : ٧٤، ٩١، ٩٣. رسائل إخوان الصفاء : ٤/ ٨٢، ٨٩ أمثلة أخرى.

(٤٢) رسائل إخوان الصفاء : ٤/١٤٩.

(٤٣) م. ن : ٣/ ٨٨.

(٤٤) م. ن : ٣/ ١٧٤.

(٤٥) م. ن : ٤/ ١٤٦، وأنظر م. ن : ٣/ ٧، ٤٤ أمثلة أخرى.

(٤٦) م. ن : ٣/ ٤٥.

(٤٧) م. ن : ٣/ ٤٤، ٤/ ١٠٢، ١٣٩.

(٤٨) م. ن : ٣/ ٤٤، وأنظر م. ن : ٤/ ١١٧، ١٥١، ١٥٤.

(٤٩) تداعي الحيوانات : ٨٠.

(٥٠) رسائل إخوان الصفاء : ٣/ ٤٥، ٤/ ١٤٧، ١٥٠.

(٥١) م. ن : ٣/ ٤٥، ٤٦.

(٥٢) م. ن : ٤/ ٢٠٥.

(٥٣) م. ن ٤/ ١٥٣، وأنظر م. ن : ٣/ ٦٧، ١٥٤، ٢٠٤، ٢٠٥. تداعي الحيوانات : ١٦٧، ١٧٦.

(٥٤) م. ن : ٣ / ٧، ٣٣٤، ٤/ ١٤٩، ١٥٣ وغيرها.

(٥٥) م. ن : ٣/ ٣٠١، ٣٠٢. تداعي الحيوانات : ٦٣ - ٦٥.

المصادر والمراجع

- تداعي الحيوانات على الإنسان : إخوان الصفاء. قدّم لها : فاروق سعد دار الآفاق الجديدة. بيروت. ط١، ١٩٧٧م.
- دراسات في تأريخ الفلسفة وآثار رجالها : عبده الشمالي، دار صادر. بيروت. ط٤. ١٩٦٥م.
- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء : عني بتصحيحه : خير الدين الزركلي، المطبعة العربية بمصر. ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.
- ظهر الإسلام : أحمد أمين. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٥. ١٩٦٩م.
- عصر الدول والإمارات (تأريخ الأدب العربي -٥-) : د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر. القاهرة. ١٩٨٠م.
- فن القصة : د. محمد يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت. د. ت.
- مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ٦٦٦هـ. دار الكتاب العربي. بيروت. ط١. ١٩٦٧م.
- مدخل الى نظرية القصة، تحليلا وتطبيقا : سمير المرزوقي. وجميل شاكر دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية). بغداد ١٩٨٦م.
- المعجم الأدبي : جبور عبد النور. دار العلم للملايين. بيروت. ط١. ١٩٧٩م.
- معجم المصطلحات العربية والأدب : مجدي وهبة. كامل المهندس مكتبة لبنان. بيروت ١٩٧٩م.

- نظرية السرد من وجهة النظر الى التبئير : جيرا أرجينيت وآخرون : ترجمة : ناجي مصطفى. دار الخطابي للطباعة والنشر. البيضاء ١٩٨٩م.